مجلة أبحاث
ISSN: 0834-2170
EISSN2661-734X
المجلد 8 / العـدد: 1 (2023)، ص 611– 626

الإستشراق المادح وخطره على الفكر الإسلامي الحديث من منظور مالك بن نبي

The Danger of praised orientalism on Arab- Islamic thought from the perspective of Malik bin Nabi

مهتور حملاوي* جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة
h.mehtour@univ-skikda.dz

تاريخ الاستلام: 01 /2022/09 تاريخ القبول: 22 /2023/05 تاريخ النشر: 10 /2023/06

ملخص:

إذا كان المادح يركز دائما على محاسن الممدوح وإيجابياته ليثير فيه الشعور بالفخر، وإذا كان مالك بن نبي قد قسم المستشرقين إلى ناقدين للحضارة الإسلامية ومادحين لها، وحذر من خطورة الاستشراق المادح على الفكر الإسلامي الحديث؛ فإن هذا يدفعنا ومن دون شك إلى التساؤل عن أسباب ومبررات هذا التحذير ومحاولة الكشف عنها، وهذا ما نسعى لتحقيقه من خلال هذا البحث.

وننتهي في الأخير إلى نتيجة مفادها أن مالك بن نبي قد حذّر من خطورة الاستشراق المادح؛ لأن المدح من منظوره يعمل على تخذير العقول، ويبث روح الخمول، ويشل الفكر، ويدفع إلى الاكتفاء بذكر المآثر والأمجاد.

الكلمات المفتاحية: الإستشراق المادح، الخطر، مالك بن نبي، الفكر الإسلامي، الأمجاد.

تصنيف JEL : XN2، XN1.

Abstract:

If the praiser always focuses on the merits and positives of the praised one to arouse in him a feeling of pride, and if Malik bin Nabi divided the Orientalists into critics of Islamic civilization and praising it, and warned against the danger of praising Orientalism on modern Islamic thought; This undoubtedly prompts us to question the reasons and justifications for this warning and try to reveal them, and this is what we seek to achieve through this research.

Finally, we come to the conclusion that Malik bin Nabi had warned of the danger of praised Orientalism; Because praise, from its perspective, numbs minds, spreads the spirit of idleness, paralyzes thought and pushes one to be satisfied with mentioning the exploits and glories.

Keywords: praised Orientalism, danger, Malik Bennabi, Islamic thought, glories.

Jel Classification Codes: XN1, XN2.

* مهتور حملاوي

مقدمة:

تعتبر ظاهرة الإستشراق من أهم الظواهر، وأوثقها صلة بالحياة الفكرية والثقافية لسكان الشرق عامة، وللعرب والمسلمين بوجه خاص؛ ذلك أن الإستشراق قد أثار قضايا فكرية وثيقة الصلة بروح الشرق وحضارته، واستهدف الإسلام الذي هو بالنسبة للمسلمين أساس كينونتهم وروح حضارتهم ومحركها .

وإذا كانت الساحة الفكرية في العالم العربي الإسلامي في العصر الحديث؛ قد شهدت ميلاد بعض الاتجاهات المؤيدة للاستشراق والمنوهة بجهود المستشرقين؛ فإنها قد عرفت أيضا ظهور بعض المواقف الرافضة له، والمحذرة من إنتاجات المستشرقين وأعمالهم، وضمن هذا السياق يأتي بحثنا هذا، والذي نسعى من خلاله إلى تسليط الضوء على موقف أحد أبرز أعلام وممثلي الفكر الإسلامي في العصر الحديث من الإستشراق، ومحاولة الكشف عن أسباب رفضه لإنتاج المستشرقين وتحذيره من خطر المادحين للحضارة الإسلامية منهم على وجه الخصوص، ويتعلق الأمر بالمفكر الجزائري ذو البعد العالمي مالك بن نبي، صاحب الفكر المتميز والحيوي المرتبط بالإسلام وتراثه، المتفتح على الحضارة الغربية وعلومها، والذي عرف بتناوله لمشكلات الحضارة، واهتمامه بموضوع نهضة العالم الإسلامي وتقدمه، وهذا عبر إثارتنا لجملة من الأسئلة الهامة والمحورية، وعلى رأسها: ما مفهوم الإستشراق بوجه عام؟ وما مفهومه عند مالك بن نبي؟ وإذا كان مالك بن نبي قد نبه إلى خطورة الإستشراق المادح وحذّر منه؛ فهل يعني هذا أن الإستشراق القادح لا يشكّل خطرا على الفكر الإسلامي؟ لماذا يركّز مالك بن نبي على التحذير من خطر الإستشراق المادح؟ وأين تكمن خطورة هذا الأخير؟ وهل هو أشد خطرا على مسار الفكر الإسلامي من الإستشراق الناقد للحضارة الإسلامية المشوه لسمعتها؟ ما هي مبررات القول بخطورة إنتاج المستشرقين المادحين على الفكر الإسلامي عند مالك بن نبي؟ وما مدى أهمية تحذير مالك بن نبي من خطر الإستشراق المادح؟

وقد اعتمدنا في محاولة الإجابة عن الأسئلة التي سبق طرحها على جملة من المناهج، وهي تلك التي فرضتها واقتضتها طبيعة الموضوع، وعلى رأسها المنهج التاريخي، والمنهج التحليلي، وهذا الأخير هو منهج لا غنى عنه لتبسيط الأفكار وتوضيحها، كما وظفنا بعض جوانب المنهج المقارن، والتمسنا خطة منهجية؛ قمنا على ضوئها بتقسيم بحثنا إلى مقدمة، وخمسة عناصر وخاتمة، حيث قمنا في المقدمة بالتمهيد للموضوع، وحددنا الهدف منه، وضبطنا إشكاليته، وأتينا على ذكر المناهج المستخدمة فيه، أما العنصر الأول فقد تناولنا فيه مفهوم الإستشراق بوجه عام، وتناولنا في العنصر الثاني مفهوم الإستشراق عند مالك بن نبي، وبينّا في العنصر الثالث أصناف المستشرقين عند مالك بن نبي وموقفه منهم، وعرضنا في العنصر الرابع مبررات القول بخطورة الإستشراق المادح على الفكر الإسلامي عند مالك بن نبي وتطرقنا في العنصر الخامس والأخير إلى أهمية تحذير مالك بن نبي من خطورة الاستشراق المادح، وأنهينا بحثنا بخاتمة تضمنت خلاصة ما انتهينا إليه، وهذا على النحو الآتي:

2. مفهوم الإستشراق

1.2 التعريف اللغوي:

الاستشراق في اللغة من الفعل "شَرق"، وهو بالمعنى الحضاري يشير إلى الطلوع، والنور، والتوهج والوضوح...، أما معناه الجغرافي فهو الشرق الذي يقابل الغرب، فالشائع والمتداول هو"الشرق والمشرق" يقال: طلع الشرق، ويقال: شرقت الشمس طلعت (الرازي، 1988، ص141) والإستشراق كلمة مركبة من الشرق، وجملة من الحروف (الهمزة والسين والتاء"است")، والتي تعني في قواعد اللغة العربية طلب الشيء؛ وبذلك يكون معنى الإستشراق هو طلب الشرق (تاج، 2014، ص16).

ومن هنا يمكننا القول أن الإستشراق في اللغة لا يخرج عن كونه دراسة للشرق، فالشرق هو قبلة الدراسات الغربية وهدفها، والمؤكد أن لكل دارس للشرق خلفياته ومنطلقاته وأهدافه، ورهاناته، فهو يعرف ومن دون شك لماذا يكتب ولمن يكتب، وما هو هدفه من الكتابة.

2.2 الإستشراق بالمعنى الإصطلاحي العام

يعتبر مصطلح"الإستشراق"، من المصطلحات الغامضة والمبهمة، لأن "الشرق" هو اصطلاح ابتدعته أوربا لكل أرض تقع وراء حدودها شرقا إلى اليابان، بيد أن هذا المصطلح بدأ يتزحزح عبر القرون ليقتصر في مفهومه العام والغامض أيضا على الشرق الأوسط وما في هذا الشرق من أديان (عدا النصرانية لأن الفكر الأوربي لا يحب ربطها بالشرق) وثقافات أوحضارات مختلفة (السامرائي، 1983، ص107، ص108).

كما يعتبر الإستشراق وما يشتق منه نحو"مستشرق" من التسميات الحديثة، وإن كان مدلولها قديما، ذلك أن الإستشراق قد ظهر بعد أن بث الغرب عيونه في أرض الإسلام، فلاحظوا بأن المسلمين قد استكانوا واستناموا إلى النصر القديم على المسيحية، واغتروا بالنصر الحادث بفتح "القسطنطينية"، ولاحظوا أيضا سماحة أهل الإسلام عامتهم وخاصتهم مع من دينه الذي يخالف دينهم ولا سيما اليهود والنصارى؛ لأنهم أهل كتاب وأهل ذمة، ولأنهم أتباع الرسولين الكريمين موسى وعيسى عليهما السلام، ولأن دين أحدهم لا يسلم له حتى يؤمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله، فاعلموا رهبانهم وملوكهم أن هذا هو الذي يسر لهم أن يحوبوا في الأرض بسلام، ويسر لهم خاصة أن يداهنوا العلماء والعامة، وينافقوهم ويوهموهم بالمكر أنهم طلاب علم لا غير خالصة قلوبهم لحب العلم والمعرفة، وعندها نشأت هذه الطبقة من الأوربيين الذين عرفوا فيما بعد باسم "المستشرقين"، وهم أهم طبقة تمخضت عنها اليقظة الأوربية (شاكر، 1997، ص48).

وقد اتسمت تعريفات بعض الباحثين للإستشراق بطابع التعميم، من حيث هو دراسة لعلوم الشرق عامة، وأديانه ولغاته..إلخ بينما تميزت تعريفات البعض الآخر منهم له بطابع التخصيص، حيث كان تركيزهم على دراسة الشرق الإسلامي والحضارة الإسلامية تحديدا. وعلى العموم يمكن القول أن الإستشراق ظاهرة صاحبت الصحوة الفكرية التي عاشتها أوربا منذ أن شعرت بالتهديد الإسلامي عن طريق الأندلس غربا، وعن طريق تركيا شرقا بعد ذلك؛ فكان أن اهتم الغرب بالإستشراق لغايتين كبيرتين، وهما: الحد من انتشار الإسلام في الغرب، و"حماية" الإنسان الغربي من الإسلام أولا، والتعرف على بلاد المسلمين وثقافتهم ومعتقداتهم وآدابهم، لكي يسهل التأثير على هذه البلاد وأهلها ثانيا.

فقد كان الغرب منشغلا بإعداد منهجية تستهدف احتواء ثقافة الآخر، وركزت في ذلك على دراسة البيئة العربية الإسلامية لأسباب تاريخية تعلقت بخصوبة الحضارة العربية الإسلامية في زمن النضج والازدهار، وشمل هذا محاولة احتواء الجوانب العلمية، والفكرية والثقافية، واللغوية، والدينية، وقد استحضر أصحاب الإحتواء أجهزة محكمة توافقت مع منهجيتهم في العمل والإنجاز، وكان الإستشراق واحدا من هذه الأجهزة (تاج، 2014، ص15).

والجدير بالذكر هنا أن المستشرقين قد كانت لهم مواقف تجاه تسمية "الإستشراق"، وذلك لارتباطه بدوائر مشبوهة كالتبشير والاستعمار؛ فعن طريق الملاحظات التي جمعها المستشرقون من جولاتهم وسياحتهم في دار الإسلام ومن الكتب، وقدموها لملوك المسيحية الشمالية؛ نشأت طبقة الساسة الذين يعدون العدة للرد على الإسلام وإلحاق الهزيمة به، ولتحقيق الأحلام والأشواق التي كانت تخامر قلب كل أوربي أن يظفر بكنوز الدنيا المدفونة في دار الإسلام، وما وراء دار الإسلام، وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم "رجال الا ستعمار"، ولقد كان لملاحظاتهم التي زودوا بها رجال الكنيسة تأثيرا كبيرا في إثارة حمية الرهبان، فنشأت الطائفة التي نذرت نفسها

للجهاد في سبيل المسيحية، وا لدخول في قلب العالم الإسلامي؛ لكي تحول من تستطيع تحويله عن دينه إلى الملة المسيحية، ولينتهي الأمر إلى قهر الإسلام في عقر داره، هكذا ظنوا يومئذ، وهذه الطائفة هي التي عرفت فيما بعد باسم رجال"التبشير" (شاكر، 1997، ص49)، وهذه من بين الأسباب التي دفعت ببعض المستشرقين إلى محاولة التنصل من تسمية الإستشراق والتهرب منها؛ ونفي صلتهم بالدوائر المشبوهة مؤكدين علمية العمل الذي يقومون به، والمتمثل في دراسة الشرق من حيث جوانبه الحضارية، ولما أظهر العرب ردود أفعال ومواقف حيال الإستشراق لعلاقته بالدوائر المشبوهة كالتبشير والإستعمار أصبح من كانوا يتباهون بهذا المصطلح يتسابقون لإخراج شهادة وفاته (تاج، 2014، ص25، 26).

3. الإستشراق بالمعنى الخاص ـ عند مالك بن نبي ـ

لأن الأفكار والآراء ينبغي أن تؤخذ من منابعها ومصادها متمثلة في كتابات أصحابها؛ فإننا ومن هذا المنطلق سنحاول العودة إلى كتابات مالك بن نبي؛ بغية العثور على صيغ لفظية تعبر عن معنى الإستشراق عنده، والظاهر أن مالك قد أشار وبشكل صريح إلى أن المستشرق هو ذلك الكاتب الغربي الذي يجعل من الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية موضوعا له، ويظهر ذلك في قوله:"إننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية"(بن نبي، 1969، ص5).

ومن هنا جاز لنا القول أن الإستشراق عند مالك بن نبي يعني الدراسات الغربية للإسلام وحضارته، وهذا المفهوم الخاص للإستشراق الذي يقدمه مالك بن نبي يختلف عن مفهومه العام، فإذا كان المفهوم العام للإستشراق، وهو المفهوم الذي قد يتبادر إلى كل الأذهان هو الاتجاه نحو الشرق الإسلامي وغير الإسلامي لدراسة حضارته، وأديانه، وآدابه، ولغاته، وثقافته، فإن الاستشراق عند مالك بن نبي هو دراسة غير الشرقيين لحضارة الإسلام وأحوال المسلمين في مختلف العصور.

ولعل مالك بن نبي، وهو الذي عاش مدة طويلة في باريس يكون قد انتبه إلى أن الإسلام والآداب العربية والحضارة الإسلامية هي أهم ما أصبح المستشرقون يهتمون به؛ توجههم في ذلك دوافع دينية، وسياسية، وهذا يعني أن مالك بن نبي قد نظر إلى مفهوم الإستشراق من منظور إيديولوجي؛ فالمستشرق في دراسته للإسلام وحضارته توجهه دائما فكرة دينية أو سياسية، وهو لا ينطلق في كتاباته عن الإسلام من فراغ، كما أنه لا يتجه إلى فراغ أيضا، فهو ينطلق دائما من خلفيات فكرية معينة، ويراهن على تحقيق مكاسب معينة أيضا .

ومن هنا يمكننا القول بأن مالك بن نبي قد وجه الأنظار إلى مسألة على درجة كبيرة من الأهمية، وهي أن الإنسان في الأصل وليد انفعالات تمثل إرثه القديم منذ طفولته الأولى، حيث تتراكم في النفس الإنسانية عواطف ومؤثرات وتصورات. والإستشراق في حقيقته ظاهرة ثقافية ومعرفية تغذيها عواطف اكتشاف ذلك المجهول الغامض المحاط بالرموز التي لا تقرأ أحرفها بسهولة، والشرق بوصفه ذلك المجهول في أعماق النفس الأوربية، ليس مجرد كيان جغرافي بعيد بل هو كون جديد، وقارة غاضبة متحدية وضفة شرقية منتصبة بكبرياء وكأنها التاريخ كله، ولن ينسى الطفل الوليد الذي تربى في أحضان الثقافة الغربية ماكان يسمعه في طفولته من أمه وأبيه ومن مدرسته ومجتمعه، عن الإسلام والعرب والجهاد، وعن جيوش المسلمين، وهي تزحف بشجاعة وسرعة على قلاع أوربا وحصونها في الأندلس، وفي بلاد الروم، وتطارد المسيحية وتهزمها، وتنشر الإسلام وتعلي شأنه، وتعزز ثقافته وفكره وحضارته (النبهان، 2012، ص7، 8).

وهكذا يتضح لنا بأنه لا وجود لما يسمى الإستشراق البرئ عند مالك بن نبي، فالإستشراق ومن خلال دراسته للإسلام وحضارته يسعى دائما إلى تحقيق أهداف معينة، وتشويه صورة الإسلام هي من بين هذه الأهداف– الدنيئة– ، وصورة الإسلام المشوهة في الثقافة الغربية هي حقيقة مؤكدة بشهادة المستشرق الفرنسي الشهير– اليهودي الأصل– مكسيم رودنسون"Maxime Rodinson"، والتي يعلن فيها بأن الغرب قد رسم تلك الصورة السيئة، وأسس عليها وراكم مخزون الكراهية الغربية للإسلام والمسلمين منذ فجر الإسلام. وقد

استخدم الافتراء على الإسلام قديما لشحن العامة والدهماء في الحروب الصليبية التي أرادت استعمار الشرق بعد أن حرره الإسلام من قهر الإغريقين والرومان، ثم أعادت الإمبريالية الغربية الحديثة استخدام ذات السلاح- ثقافة الافتراء والكراهية- لشحن جماهير الشعوب الغربية وراء المشروع الامبريالي الساعي لاحتلال الشرق ونهب ثرواته في العصر الحديث (عماره، د.ت، ص62، 63).

فإذا كانت حركة الإستشراق قد سبقت الإستعمار بآماد طويلة، فإنها ولا شك قد قويت في القرن التاسع عشر، مع بروز الدول الاستعمارية، وانتشار سياستها التوسعية وسيطرة إيديولوجيتها على الجزء الأكبر من البلاد العربية، وإذا كانت مظاهر الاستعمار التقليدية، قد انتهت في المرحلة المعاصرة، فإن حركة الإستشراق ومنظماتها المتعددة، أخذت في التطور الأفقي، وبدت ظاهرة في مجالات كثيرة، وفي أجواء فكرية متعددة، وأنشطة ثقافية متنوعة (معاليقي، 1997، ص63).

وهكذا يتضح لنا في نهاية حديثنا عن مفهوم الإستشراق عند مالك بن نبي؛ بأنه وإذا كان المعنى الأوسع للإستشراق هو دراسة علوم الشرق وأديانه، ولغاته..إلخ، فإن المعنى الأكثر تخصيصا له، وهو المعنى الذي يتبناه مالك بن نبي، ولعله المعنى الأكثر تأثيرا في فكر الإنسان العربي المسلم ووجدانه، هو أن الإستشراق يعني دراسة الشرق الإسلامي والحضارة الإسلامية؛ لأن المسلم ينجذب للمواضيع الهامة والحساسة والعميقة، تلك التي تلامس جوهر وجوده، ولأن الدين بالنسبة للمسلم هو أساس كينونته فإنه يتوجس خيفة من كل من يقترب من دينه خشية تزييف حقائقه وتحريفها .

4. أصناف المستشرقين وموقف مالك بن نبي منهم

عندما نتحدث عن تصنيف المستشرقين بشكل عام؛ فإننا نجد الكثير من المفكرين والباحثين يقسمهم إلى ثلاثة أصناف، في حين يقسمهم البعض الأخر إلى صنفين، ومن هؤلاء مالك بن نبي الذي هو موضوع دراستنا، وقبل أن نستعرض أصناف المستشرقين عند مالك بن نبي سنتوقف مع التصنيف الأول، وهو ذاك الذي يقسم المستشرقين إلى ثلاثة أصناف، وهي:- الصنف الأول: مستشرقون مُنصفون أسلموا: وهم أولئك الذين درسوا الإسلام دراسة دقيقة واعية، واستوعبوا ما فيه فشرح الله تعالى صدورهم إلى الإسلام فأسلموا وأفادوا الإسلام والمسلمين بدعوتهم الآخرين إلى الإسلام من خلال كتاباتهم ومحاضراتهم. ومنهم: "محمد أسد" الذي ألف كتاب "الطريق إلى مكة" وكتاب: "الإسلام في مفترق الطرق"، وغير ذلك. ومنهم أيضا "مريم جميلة" التي ألفت كتاب "الإسلام بين النظرية والتطبيق".

- الصنف الثاني: مستشرقون منصفون لم يسلموا: وهؤلاء درسوا الإسلام واطّلعوا على حقائقه وتعاليمه، فنقلوها كما هي من غير تحريف ولا تزييف، ومدحوا الإسلام وأبرزوا فضائله، لكنَّ قلوبهم لم تتفتَّح للإيمان به، ومن هؤلاء أدريان رينالد "Adriaan Reland" الهولندي الذي ألّف كتاب "الديانة المحمدية" في جزأين، لكن الكنيسة منعت تداوله واعتبرته من الكتب الخطيرة على عقائد النصارى، ومنهم: آرثر جون آربري الانجليزي، الذي ترجم معاني القرآن الكريم، وألّف كتاب:" الإسلام اليوم"، ومنهم زيغريد هونكه المستشرقة الألمانية التي ألفت كتابها الشهير "شمس العرب تسطع على الغرب"، وغوستاف لوبون المؤرخ الفرنسي الذي ألف كتابه "حضارة العرب"، وهو صاحب العبارة المشهورة: " لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب".

- الصنف الثالث: مستشرقون حاقدون مخادعون ومفترون على الإسلام: ومن أهداف هؤلاء تشكيك المسلمين في دينهم وتشويهه أمام الآخرين، والعمل على تنصير المسلمين وتسهيل عملية استعمار بلادهم، ومن هؤلاء أجناتس جولد تسيهر اليهودي المجري، صاحب كتاب "تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي"، وصمويل زويمر صاحب كتاب "الإسلام" أبو غدة، 2018).

ويهمنا في هذا المقام أكثر أن نتعرف على التصنيف الثاني الذي يقسم المستشرقين إلى صنفين، وفي هذا التصنيف يندرج تصنيف مالك بن نبي، الذي يعتبر وبحق ظاهرة فريدة في الفكر العربي المعاصر؛ لأنه تعلم العربية بعد أن تقدم به السن، وتعرف على الفكر العربي والإسلامي، واستطاع الإلمام به والتعمق فيه بدراسة قضايا عربية واسلامية متعددة وكرس حياته للدفاع عنه، والعمل على إنارة السبيل

أمام الأجيال المعاصرة، وأشار إلى أن العالم الإسلامي مهدد في مصيره وكيانه، ووجه الأنظار إلى أهمية تجديد الأفكار والتمسك بالقيم الثقافية الأصيلة، وخطورة استيراد القيم الثقافية من الخارج (معاليقي، 1997، ص74). ولا يعني هذا أن مالك من دعاة الإنغلاق والتقوقع على الذات.

فقد كان مالك بن نبي متفتحا على الحضارة الغربية وعلومها وثقافاتها، حيث قرأ للعديد من فلاسفة الغرب ومفكريهم، واطلع على كتابات المستشرقين عن الإسلام ووجه الأنظار إلى أهمية، بل وضرورة العمل على تصنيف المستشرقين إلى طبقات، واعتبر ذلك مدخلا أساسيا لكل من يسعى للقيام بدراسة دقيقة وعميقة وشاملة عن الإستشراق، وقد تبين لمالك بن نبي وهو يجتهد في تصنيف المستشرقين أنهم لا يخرجون عن صنفين، وهما:

أ- من حيث الزمن: طبقة القدماء مثل توما الإكويني، جربر دورياك "d'Aurillac Gerbert" وطبقة المحدثين مثل كاره دو فو" Carra de Vaux"، وجولدتسيهر .

ب- من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتاباتهم: فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية، وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها (بن نبي، 1969، ص5).

ويجدر بنا قبل أن نتعرف على موقف مالك بن نبي من المستشرقين؛ أن نكشف بداية عن الإطار الذي تندرج فيه دراسته للإستشراق، فنقول بأن مالك بن نبي المفكر الجزائري المسلم قد درس في فرنسا، وعاش في باريس أي في قلب عاصمة الاستشراق لفترة طويلة، وتزوج بفرنسية بعد أن أعلنت إسلامها، ودرس الحضارة الغربية وخصائصها بعمق، وحاول الوصول إلى الحقائق الموضوعية التي يسير وفقها منطق التاريخ.

وقد اهتدى مالك بن نبي إلى أن مشكلة كل شعب هي مشكلة حضارته، وأنه لا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها، وهنا يؤكد مالك بأن كل ناتج حضاري هو نتاج عناصر ثلاثة، وهي: الإنسان والتراب والوقت. (بن نبي،1987، ص21، 49)، ويعتبر الإنسان بمثابة العنصر الفاعل والمؤثر في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، فقد كان هذا الأخير دائم الإلحاح على أن "نقطة البدء في كل مسار له أبعاد حضارية تنشأ من مدى وعي الإنسان لرسالته، ودوره في الكيان الاجتماعي الذي يحيط به في نسق علائقي متفاعل بعيدا عن الانعزال أو الفردانية المفرغة للإنسان من خاصيته الفاعلة، وقيمه الاجتماعية المبنية على ثقافة ناجعة" (ضيف الله، 2005، ص86).

ويؤكد مالك بن نبي أن العالم الإسلامي في بحثه عن صياغة بناء حضاري جديد؛ عليه أن يبحث أولا في أسباب الغياب الحضاري الذي استمر لوقت طويل، ويعود هذا الغياب في نظره إلى الركود الفكري الذي خيم على البلاد الإسلامية محدثا بذلك أزمة فكرية عزف الإنسان المسلم على إثرها عن الحركة، وقعد عن السير في ركب التاريخ، وقد كان للاستعمار تأثيرا كبيرا في حدوث هذه الأزمة، وعرقلة حركية النهضة في البلاد العربية والإسلامية (بن نبي، 1987، ص 81، 149)، وهذا ما أشار إليه مالك بن نبي حيث كان يدرك بأن" أوربا اكتشفت الفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخها فكانت في مرحلة القرون الوسطى، قبل وبعد طوماس الأكويني، تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها بالطريقة التي أتاحت لها فعلا تلك الخطوات الموفقة؛ التي هدتها إلى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر. وفي المرحلة العصرية والاستعمارية؛ فإنها تكتشف الفكر الإسلامي مرة أخرى لا من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها (بن نبي، 1969، ص9،8).

ويسعى الاستعمار في نظر مالك بن نبي لتضييق نشاط الحياة في البلاد المستعمرة، حتى تكون مصبوبة في قالب ضيق في كل جزئية من جزئياته، خوفا من أن تتيح الحياة المطلقة لمواهب الإنسان أن تأخذ مجراها الطبيعي إلى النبوغ والعبقرية، وعندما يسير الفرد في

تلك الحدود الضيقة التي رسمها الاستعمار، وحدد له فيها حركاته وأفكاره وحياته تكون القابلية للاستعمار قد تكونت لديه (بن نبي، 1987، 156)، وحينما نريد أن نصور خطة الاستعمار في هذا السبيل، يجب علينا كما يقول مالك بن نبي أن "نلاحظ مبدأين: مبدأ الغموض ومبدأ الفعالية فالمبدأ الأول يقضي بأن لا يكشف الاستعمار النقاب عن وجهه في المعركة إلا إذا لم تترك له الظروف حيلة، فهو دائما أو غالبا يستخدم قناع القابلية للاستعمار. والمبدأ الثاني ناتج عن الأول، في حيز التطبيق، إذ أن هدف الاستعمار لا يتعلق، في الأساس بذات شخص معين، ولكن بأفكار معين ة يريد تحطيمها حتى لا تؤدي مفعولها في توجيه الطاقات الاجتماعية في البلاد المستعمرة (بن نبي، 1981، ص37).

ولقد كان الاستعمار يعرف جيدا حساسية الجماهير المسلمة لأمجاد ماضيها، وإمكانية استغلال هذه الحساسية لالفات تلك الجماهير عن حاضرها، حيث كان أصحاب الاختصاص في الصراع الفكري عندما تعرض فكرة عمل وتأمل على الجماهير الإسلامية، يزيفونها أو يصرفون الأبصار عنها بعرض أفكار أخرى في المناسبة ذاتها، أفكار جذابة، تدعو للأحلام السعيدة، أفكار مقتبسة من ألف ليلة وليلة. (بن نبي، 1969، ص17، 18)، وهنا لا يتردد مالك بن نبي في التأكيد على أن الأدب المبالغ في المدح والتمجيد لماضينا ما هو إلا وسيلة إلفات في المجال السياسي أو في المجال الفكري، حتى يلتفت وينصرف العالم الإسلامي عن أم مشكلاته، ألا وهي مشكلة حضارته، ويهتم بمشكلات وهمية وبحلول وهمية أيضا(بن نبي، 1969، ص18)، وضمن هذا الإطار تندرج دراسة مالك بن نبي للإستشراق ونقده له، فقد أدرك مالك بأن الإستعمار يسعى ومن خلال خطط الصراع الفكري وبشتى الوسائل ومنها الإستشراق إلى بسط هيمنته الفكرية والثقافية وتعطيل طاقات الإنسان المسلم، حتى لا ينتج ولا يبدع، لكي يظل تابعا ومقلدا لما تقدمه الحضارة الغربية من نماذج وأنساق فكرية ومعرفية، فيقتبس منها بدون نقد ولا تمحيص، فتنطلي عليه خطط الاستعمار الشيطانية وبذلك يكون عقله في أذنيه كما يقال، وعلى إثر هذا جاء مالك بن نبي بمشروعه الفكري الطموح والساعي لإيقاظ الوعي الحضاري الإسلامي، ومحاولة البحث في منهج النهوض، والمشاركة في الحضارة الإنسانية، وتحريك الطاقات المعطلة في المسلم المعاصر، وتعزيز ثقته في نفسه، وتخليصه من الشعور بعقدة النقص تجاه الحضارة الغربية ومن آثار الغزو الثقافي والتحكم الفكري، وإعداده ليكون قادرا على إتقان آليات التبادل المعرفي بعيدا عن الارتماء والانغلاق، لأن التبادل المعرفي ضرورة حضارية تسمح بالتعرف على الآخر وعقيدته وثقافته وتاريخه وحاضره.

وإذا كان أتباع المستشرقين وتلامذتهم في عالمنا الإسلامي والعربي قد أسرفوا في تقدير المستشرقين، وبالغوا في مدحهم وإطرائهم والإشادة بأعمالهم وإنجازاتهم، وحاولوا تضليل الناس وخداعهم بأن الحركة الإستشراقية هي في صميمها حركة علمية نزهة وبريئة من الأغراض والأهواء والتوجهات العدائية للإسلام والمسلمين، وحرصوا على رسم صورة إيجابية مشرقة وضاءة للإستشراق(اسماعيل، 2000، ص5، 6) فإن الكثير من مفكري المسلمين قد وقفوا موقف الرفض المطلق للإستشراق؛ فلم يقبلوا أي إسهام في الثقافة الإسلامية من أناس لا يدينون بالإسلام، ورفضوا حتى ما جاء من صيغ الإطراء والمديح التي تلفظ بها بعض المستشرقين (النملة، 1998، ص21). ومن هؤلاء مالك بن نبي؛ الذي ذهب إلى التأكيد على أن المستشرقين القدماء قد أثروا، ويمكن لتأثيرهم أن يكون مستمرا على مجرى الأفكار في العالم الغربي، دون أيما تأثير على أفكارنا نحن معشر المسلمين، فإذا كانت أفكارهم قد أثرت في النهضة الأوربية فإنها لم تؤثر في ما نسميه بالنهضة الإسلامية اليوم (بن نبي، 1969، ص6).

وبشأن طبقة المستشرقين الناقدين والمادحين للحضارة الإسلامية المحدثين؛ يرى مالك بن نبي أن الطبقة الأولى لا تشكل خطرا كبيرا على فكرنا وثقافتنا، وأن الخطر الأكبر يأتي من طبقة المستشرقين المادحين؛ وهذا يدفعنا من دون شك إلى التساؤل عن أسباب ومبررات رفض مالك بن نبي للإستشراق وتحذيره من خطورة إنتاج المستشرقين المادحين للحضارة الإسلامية على مسار الفكر الإسلامي وتأكيده على أن الإستشراق المادح هو معول هدم لثقافتنا وحضارتنا الإسلامية؟

5. مبررات القول بخطورة الإستشراق المادح على الفكر الإسلامي عند مالك بن نبي

يرى مالك بن نبي أن المستشرقين الناقدين للحضارة الإسلامية القدماء والمحدثين لا يشكلون خطرا على فكرنا وثقافتنا، وهو يعتمد في تبرير موقفه على حجة نفسية وجدانية؛ يمكن لكل إنسان أن يتحقق من صدقها وصحتها؛ فالإنسان يكون على أهبة الإستعداد للمواجهة عندما يستشعر قدوم الخطر، فلا أحد يستقبل من يتوعده بالقتل بباقة ورد، وهكذا..، فإن عندنا كمسلمين ذلك الاستعداد لمواجهة الخطر الظاهر المحذق بنا، ولذلك فالإستشراق الناقد لحضارتنا الإسلامية الساعي لهدمها وإلغاء اسهاماتها في بناء الحضارة الإنسانية لا يخيفنا، ولا يشكل خطرا علينا، وذلك "لما في نفوسنا من استعداد لمواجهة أثره تلقائيا، مواجهة تدخلت فيها عوامل الدفاع الفطرية عن الكيان الثقافي" (بن نبي، 1969، ص6)، وهذا يعني أن تكوين الإنسان المسلم النفسي هو الذي يحدد نوعية الإستجابة أو رد الفعل لديه في حال وجود خطر ما يهدد كيانه الثقافي، حيث أنه لا يحتاج إلى من ينبهه إلى وجود الخطر .

ولذلك نجد بأن محاولات الطمس والتشويه والإساءة للعروبة والإسلام ورموزه تترك لدى المسلم دائما أثرا نفسيا سيئا فيهب للدفاع عن دينه وهويته وعروبته وثقافته، وهذا أمر طبيعي جدا. وليست الإساءة للإسلام كعقيدة وللمسلمين كأمة أمرا جديدا بالنسبة للمسلمين، فقد عبر الخطاب الغربي عن هذه الإساءة مستعملا شتى الوسائل، منذ البدايات الأولى لحركة الإستشراق، ولا سيما بعد الحروب الصليبية عندما بدأ الاحتكاك الفعلي بين الغرب والشرق (عبد النبي، 2017، ص92).

ولأن الإستشراق قد اقترن تاريخيا بالإستعمار، فقد أصبح المسلمون ينفرون منه ويكرهونه؛ مثلما يكرهون هذا الأخير وهذا ما يشير إليه ويؤكده المستشرق الفرنسي"دانيال ريج" الذي يبرر كراهية المسلمين والعرب لمصطلحي الإستشراق والمستشرق بتطابق مصطلح الإستشراق في الجرس والوزن مع لفظ الاستعمار في أذهانهم (خليفة، 2000، ص25، 27).

وإذا كان المسلمون ينفرون من لفظ الإستشراق ويرون في هذا الأخير خطرا يهدّد كيانهم، فإن مالك بن نبي ينبه إلى ضرورة الحذر من فئة المستشرقين المادحين؛ لأن هذه الفئة لا تثير في النفوس ما يحث على أي استعداد أو رد فعل دفاعي؛ حيث "لم يكن هناك في بادىء الأمر، مبرر للدفاع الذي فقد جدواه، وكأنما أصبح جهازه معطلا لهذا السبب في نفوسنا"(بن نبي، 1969، ص7)، فهناك جانب في إنتاج المستشرقين كان له أثر نفسي سيء في أذهان المسلمين؛ لأن بعض المستشرقين خلطوا في كلامهم بين المدح للإسلام وبين وضع السم في الدسم، وهذا المدح جعل بعض المسلمين يستسلمون لنزعة الفخر والعيش مخدرين على أمجاد الماضي.

فالمسألة هنا هي مسألة تأثر ورد فعل من طرف الذات المسلمة التي تجد نفسها مستكينة، وراضية، وقانعة بوضعها ومسترسلة وراء عبارات المدح والثناء، تلك التي يمطرها بها المادحون من المستشرقين؛ فتكون بذلك ذاتا سلبية متلقية ومنفعلة؛ لا فاعلة ومؤثرة؛ أمام هذا المدح الذي جاء من قوم ينتسبون وينتمون إلى الثقافة الغربية؛ التي فرضت نفسها وبسطت سيطرتها على العالم بوجه عام، والعالم الإسلامي بوجه خاص .

وتحت تأثير الهيمنة الفكرية والثقافية الغربية، وما تسبب عنها من مركب نقص أصبح الفكر الإسلامي في نظر مالك بن نبي ينحاز إلى معسكرين، يدعو أحدهما لتمثل الفنون والعلوم والأشياء الغربية، أما الآخر فيحاول التغلب على مركب النقص بتناول حقنة اعتزاز يعلل بها النفس ويسليها، وهذا التيار الأخير له علاقة بإنتاج المستشرقين؛ فقد وجد منحدره الطبيعي في أدب الفخر والتمجيد الذي نشأ منذ القرن التاسع عشر على إثر ما نشره علماء مستشرقون، عن الحضارة الإسلامية (بن نبي، 1969، ص11، 12) ويندرج في هذه الأعمال المادحة ما كتبه العلامة سيديو في كتابه تاريخ العرب حيث يقول: "كان المسلمون في العصور الوسطى متفردين في العلم والفلسفة والفنون، وقد نشروها أينما حلت أقدامهم، وتسربت عنها إلى أوربا، فكانوا هم سببا لنهضتها وارتقائها"(طبارة، 1993، ص278).

ويعتقد مالك بن نبي بأن الافتخار والاعتزاز بإنجازات الماضي، والانسياق وراء أصوات المدح التي تأتي من هنا وهناك لا يمكن أن يكون علاجا للفكر الإسلامي المريض، وإذا كانت له حسنات وسيئات فإن مساوئ طريقة هذا العلاج أكثر من حسناتها، حيث أن هناك آثارا نفسية لأسلوب التكوين، وهي الآثار التي يوضحها مالك بن نبي بمثال بسيط فيقول: "اننا عندما نتحدث إلى فقير، لا يجد ما يسد به الرمق اليوم، عن الثروة الطائلة التي كانت لآبائه وأجداده إنما نأتيه بنصيب من التسلية عن متاعبه بوسيلة مخذر يعزل فكره مؤقتا وضميره عن الشعور بها : اننا قطعا لا نشفيها فكذلك لا نشفي أمراض مجتمع بذكر أمجاد ماضيه"(بن نبي، 1969، ص13)، فالهروب من الواقع والعودة إلى الماضي المشرق المليء بالمآثر والأمجاد؛ التي صنعها الأباء والأجداد لا يفيد الفكر الإسلامي في شيء، وعليه لذلك أن يرتبط بواقعه، ويسعى لتغييره بالإندماج فيه، ويسعى لإيجاد الحلول العملية ولا يعيش في الأوهام، فالماضي للإعتبار وليس لمجرد الترديد والإجترار.

إن التغني بالأمجاد والاكتفاء بترديدها، والاستماع إلى أصوات المدح يعمل في نظر مالك بن نبي على تخذير الفكر وتنويمه، فتغيب عنه الفاعلية، فعندما اقترنت نزعة المديح بالعمل الفكري، واتجهت الثقافة إلى امتداح الماضي أصبحت " ثقافة أثرية، لا يتجه العمل الفكري فيها إلى أمام بل ينتكس إلى وراء. وكان هذا الاتجاه الناكص المسرف سببا في انطباع التعليم كله بطابع دارس لا يتفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل، وبذلك أصيبت الأفكار بظاهرة التشبث بالماضي، كأنما قد أصبحت متنفسا له"(بن نبي، 1986، ص60)، وهكذا فبدلا من أن تتجه الأفكار إلى الأمام اتجهت إلى الوراء.

وقد كان الإستشراق المادح يدرك جيدا سحر الكلمة وقدرتها على التأثير في الفكر، فعمل على توظيف هذا السلاح الفعال والخطير ليخدع ضحاياه ويوقع بهم، فلا شك كما يقول مالك بن نبي أن "أولئك الماهرين في فن القصص قد قصوا للأجيال المسلمة في عهد ما بعد الموحدين قصة ألف ليلة وليلة وتركوا بذلك أثر كل سمر، ونشوة تخامر مستمعيهم حتى يناموا فتنغلق أجفانهم على صورة ساحرة لماض مترف"(بن نبي، 1969، ص13).

وإذا كان الأدب المفاخر والمنتشي بابداعات الماضي، وهو ينشد"عصور الأنوار" للحضارة الإسلامية قد ساهم في الحفاظ على الشخصية الإسلامية؛ فإنه ومع ذلك لم يمنح لهذه الشخصية فرصة مواكبة التقدم العلمي الحاصل، ولم يطبعها بما يساير ويطابق عصر الفعالية والميكانيك، ومن الواضح أن من أكثر البوادر دلالة على اتجاه مجتمع معين ما، هو اتجاه أفكاره: فإما أن تكون متجهة إلى الأمام، إلى المستقبل، أو إلى الخلف، اتجاها متقهقرا، اتجاها ملتفتا إلى الماضي بصورة مرضية، وهنا يظهر لنا أثر هذا النوع من أدب المدح والتمجيد والإطراء على سير الأفكار، واتجاهها في المجتمع الإسلامي المعاصر، فنرى على الفور الجانب الآخر لهذا الأدب، عندما يصير بين يدي أولئك الأخصائيين وسيلة عمل جهنمي في تحريك رحا الصراع الفكري المحتدم في بلادنا (بن نبي، 1969، ص14، 16).

ويشير مالك بن نبي إلى أن الصدمة التي حصلت للضمير الإسلامي في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين، تجاه الحضارة الغربية، قد كانت محسوسة في عالم أفكارنا بوجه خاص، وفي مجال الأفكار العلمية بالذات، بحيث كان لهذه الصدمة أثرها حتى في ميدان تفسير القرآن الكريم، ويظهر ذلك التأثير العلماني العقيم على أفكارنا، على سبيل المثال واضحا وجليا في تفسير طنطاوي جوهري للقرآن الكريم، وهو التفسير الذي لا نجد فيه كثيرا من الجدوى.

وليست تلك العلمانية العقيمة بالنسبة للفكر الإسلامي فيما يرى مالك بن نبي إلا عملية تعويض في الميدان الذي شعر فيه الفكر أكثر بتحدي الحضارة الغربية، وقد وجد الأدب الإستشراقي المادح في الانبهار بالثقافة الغربية تربة خصبة ليزرع فيها تلك المخدرات التي يتقبلها بكل شغف مجتمعنا؛ لأنها تخدر ضميره وتسليه، ولكن هذا الضمير لازال في صراع داخلي تسكنه أحيانا مؤلفات مشارقة مثل طنطاوي جوهري، وأحمد رضا، وفريد وجدي، أو مستشرقين مثل دوزي، وغوستاف لوبون، أو تثير مؤلفات أخرى لمشارقة ومستشرقين آخرين في صورة استثارات وتحديات جديدة لما تستصغر هذه الطائفة أو تلك ما ساهم به العرب في تنمية العلوم، إبان

حضارتهم، قاصرين دور هذه الحضارة على مجرد تبليغ ما أنتجه اليونان والرومان. وهكذا يبقى الضمير الإسلامي في دوامة صراعه الباطن يسكنه أحيانا ما يكتب المادحون ويثيره أحيانا أخرى ما ينتجه المفندون، وقد استمر هذا الصراع منذ قرن في حلقة مغلقة مستهلكا أجدى الطاقات الفكرية في العالم الإسلامي من دون جدوى، من دون أي تأثير حقيقي على تطور العقلية الإسلامية (بن نبي، 1969، ص22، 23، 24).

ويرى مالك بن نبي بأننا لو حاولنا اليوم أن نجعل تقويما لإنتاج الفكر الإسلامي؛ فإننا نراه يعبر أحسن تعبير على تبديد طاقات فكرية ثمينة لم يحسن استخدامها، وإذا أردنا أن نعطي هذا التقويم كل معناه يجب أن نقارن هذا الإنتاج بما أنتجه لوثر وكلفان إبان حركة الإصلاح في أوربا، وإنتاج ديكارت الذي ساهم في وضع أقدام أوربا على طريق التطور التكنولوجي؛ أو إنتاج ماركس وأنجلس ولينين الذين وضعوا على أقدامه مجتمعا جديدا يغزو اليوم الفضاء. وبالتالي يتبين لنا أن الإنتاج الإستشراقي، بكلا نوعيه، كان شرا على المجتمع الإسلامي (بن نبي، 1969، ص24).

ومن هنا يظهر لنا جليا بأن مالك بن نبي قد ضيق الخناق على المستشرقين بدون تمييز، فكلهم في رأيه يتحمل مسؤولية، وخطيئة التأثير السلبي على الفكر الإسلامي، فالإنتاج الإستشراقي كان شرا على المجتمع الإسلامي، لأنه ركب في تطوره العقلي عقدة حرمان سواء في صورة المديح والإطراء التي حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر وأغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا، أو في صورة التفنيد والتقزيم والإقلال من شأننا؛ بحيث صيرتنا حماة الضيم عن مجتمع منهار، مجتمع ما بعد الموحدين، بينما كان من واجبنا أن نقف منه عن بصيرة طبعا ولكن دون هوادة، ولا نراعي في كل ذلك سوى مراعاة الحقيقة الإسلامية غير المستسلمة لأي ظرف في التاريخ دون أن نسلم لغيرنا حق الإصدع بها والدفاع عنها لحاجة في نفس يعقوب، وعلى كل فإن أمكننا أن نصرح بأننا نجد على كل وجه جانبا إيجابيا في هذا الإستشراق، فإننا لا نجده في صورة المديح، بل في صورة التفنيد (بن نبي، 1969، ص25)، فما الذي يؤكد ذلك في رأي مالك بن نبي؟

إن للقدح والتشكيك والتفنيد دورا تحفيزيا بالنسبة للفكر الإسلامي، فعندما يقلل الإستشراق من أهمية دور العرب والمسلمين في بناء الحضارة المعاصرة، ويجعلهم مجرد نقلة للحضارات السابقة، وليس لهم تأثير يذكر على الحضارة الغربية، لأن العقل العربي شيمته الجمود والتقليد (معاليقي،1997، ص79) وهو الموقف الذي نجده عند المستشرق الفرنسي أرنست رينان (1823_1892)، وهو واحد من الأسماء اللامعة في عالم الإستشراق فضلا عن أنه من مشاهير المستشرقين الفرنسيين، وقد كرس رينان حياته كلها لمبدأ واحد لا يتعداه وهو، رأيه القائل بأن الإسلام دين يتناقض مع العلم، وأن الإسلام هو السبب في انحطاط المسلمين. ولقد حمل رينان لواء العداوة لكل ما هو اسلامي وعربي (عبد النبي، 2017، ص91، 92).

فالإسلام من منظور رينان دين رجعي معادي للعلم والعلماء، ولا علاقة له بالتقدم، وهذا ما يؤكده رينان بقوله:" إن أي شخص قليل العلم بأمور عصرنا سيرى بوضوح التدني الحالي للبلدان الإسلامية وتراجع الدول التي يحكمها الإسلام، والعجز الفكري للأجناس التي تتمسك فقط بهذا الدين: ثقافتهم وتعليمهم"(الحافظ، 2005، ص34).

ويرى مالك بن نبي أن هذا الموقف، بما فيه من إفراط في الجحود، يضطرنا إلى طرح مشكلة الإسلام والعلم في صورة جديدة تتماشى أكثر مع قداسة الدين وسموه، ومنطق العلم وحقائقه، بحيث لا نصبح نبحث في الآيات الكريمة هل ذكر فيها شيء عن غزو الفضاء أو تحليل الذرة، وإنما نتساءل هل في روحها ما يعطل حركة العلم، أو على العكس ما يشجعها وينميها. يجب على وجه الخصوص أن نتساءل إذا ما كان يستطيع القرآن أن يخلق في مجتمع ما المناخ المناسب للروح العلمي، وأن يطلق فيه الأجهزة النفسية الضرورية لتقبل العلم من ناحية، ولتبليغه من أخرى. هذه صورة المشكلة إذا ما طرحناها كما ينبغي لها أن تطرح، نعني من الجانب النفسي الاجتماعي، لا من جانب تطور العلم (بن نبي، 1969، ص26)، وقد بدأت ملامح المجتمع النفسية تتغير منذ نزول"اقرأ" تغيرا

تولّد عنه المناخ العقلي الجديد، وترسخت قيمة العلم في الضمير الإسلامي، وتم الاعتراف بفضل رجل العلم على الجاهل في المجتمع الجديد ، وهذا ما ينبغي أن يكون .

وإذا كان مالك بن نبي قد حذّر من خطورة الإستشراق المادح على مسار الفكر الإسلامي فلأن المدح، وبالإضافة إلى كونه منوما ومخذرا للفكر، فإنه أيضا يفتح أبواب التبعية الفكرية للإستشراق، لأن المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية لا يمكنه أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتـ ـجات الضرورية لتصنيعه، ولن يتأتى لمجتمع في عهد التشييد أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج، ومن هنا كان لزاما علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية، واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادي والسياسي(بن نبي، 1969، ص48)، ولا يكفي في نظر مالك بن نبي أن ننتج أفكارا، بل ينبغي العمل على توجيهها بحسب مهمتها الإجتماعية التي نريد تحقيقها (بن نبي، 1984، ص67). وهنا يؤكد مالك بن نبي حرصه الشديد على مراعاة الوظيفة الإجتماعية للفكر، وضرورة استغلال طاقاته وتوجيهها.

فالأفكار التي لا تستغل ولا توجه تضيع وتتلاشى وتتبدد؛ فتغيب الفاعلية، وينكشف الضعف، ويحدث التراجع، وهذه كانت كما يقول مالك بن نبي:"حال المجتمع الإسلامي في الشرق، في نهاية العصر العباسي، وفي المغرب، في نهاية عصر الموحدين" (بن نبي، 1986، ص42) فنحن نحتاج إلى فكر جديد يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع أصبح يبحث عن وضع جديد، هو وضع النهضة، إننا نحتاج إلى فكر جديد، فكر نشط وفعال يفصلنا عن رواسب الماضي ويصلنا بمقتضيات المستقبل(بن نبي، 1987، ص86). ونكون بذلك قادرين على العودة إلى حلبة التاريخ والمساهمة في بناء الحضارة الإنسانية، لأن الحضارة تقوم على فاعلية الإنسان ووظيفية أفكاره ففي" فترة اندماج مجتمع ما في التاريخ يكون للأفكار دور وظيفي؛ لأن الحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة أو مهمة معينة"(بن نبي، 1988).

ومن هنا كان لزاما على الإنسان المسلم أن يعمل على توجيه أفكاره لكي تؤدي دورها الوظيفي، ويسعى لزرع بذور الأصالة والتميز والاستقلالية الفكرية، ومع كل ما يمر به العالم الإسلامي من تطورات نفسية واجتماعية وسياسية؛ فإن البذور التي استودعت التربة ستؤتي أكلها يوما، فإن الأفكار التي تتمكن من الضمير الإنساني فتصبح جزءا منه لا يمكن أن تفنى، وغاية الأمر أنها قد تخط طريقها أحيانا في حنايا هذا الضمير، ثم تنبجس منطلقة في اللحظة التاريخية وقد اتخذت صبغة أخرى (بن نبي، 1986، ص160).

6. أهمية تحذير مالك بن نبي من خطر الإستشراق المادح

إن كتابات المستشرقين والحركة الإستشراقية بوجه عام؛ لم تكن حركة بحثية موضوعية على إطلاقها ومن دون شك؛ فعندما يتعلق الأمر بالدين الإسلامي تغيب الموضوعية في كتابات المستشرقين، وعندما يتعلق الأمر بأديان أخرى كالبوذية والهندوكية تظهر الموضوعية عندهم، فالاسلام فقط من بين كل الديانات التي ظهرت في الشرق والغرب هو الذي يهاجم، والمسلمون فقط من بين الشرقيين جميعا هم الذين يوصفون بشتى الأوصاف الدنيئة، ولعل ذلك يعود إلى أن الإسلام كان يمثل بالنسبة لأوربا صدمة مستمرة. فقد كان الخوف من الإسلام هو القاعدة. وحتى نهاية القرن السابع عشر كان "الخطر العثماني" رابضا عند حدود أوربا ويمثل – في اعتقادهم– تهديدا مستمرا بالنسبة للحضارة المسيحية الغربية كلها (زقزوق، د.ت، ص 124) .

وإذا كان الكثير من المستشرقين قد أظهروا عداءهم وكراهيتهم للإسلام والمسلمين فكانوا بذلك شرا ظاهرا، فإن هذا الشر المعروف لا يخيف بقدر ما يخيفنا الشر المضمر والمجهول، فقد يظهر لنا الخير في أعمال بعض المستشرقين ولكن الشر الذي تنطوي عليه أعمالهم أكبر من الخير الذي نعتقده فيها؛ فليس كل ما يلمع ذهبا كما يقال؛ فكم هي كثيرة أعمال المستشرقين التي يعتقد البعض أنها أعمال مادحة بريئة ومنصفة، ولكن القراءة التحليلية المتأنية والنقدية لها تفضح ادعاءات أصحابها وافتراءاتهم على الإسلام، ومن هنا فقد

وجب الحذر من المظاهر والتحرر من عقدة الانبهار بالإستشراق الأوربي (فوزي، 1998، ص54) والتحلّى بالروح النقدية، وتفادي التسرع في إصدار أحكام قطعية إيجابية بشأن أعمال المستشرقين.

فإذا كان بعض المستشرقين قد اتخذ أسلوبا مباشرا في الإفتراء على الإسلام والإساءة إليه، وتشويه صورته، وتزييف حقائقه وتحريفها، والطعن في رموزه ومقدساته والتشكيك فيها؛ فإن البعض الآخر منهم قد غلّف هذه الإفتراءات والإدعاءات والإساءات بالمديح للإسلام ورموزه، ومن هؤلاء توماس كارليل "Thomas Carlyle" الذي استخدم أسلوبا غير مباشر في توجيه افتراءاته على الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فغلّفها بالمديح والتعظيم لشخصه عليه الصلاة والسلام، وظهر ذلك في منهج البناء والهدم الذي استخدمه؛ ففي مرحلة البناء يركّز كارليل على إبراز تلك الصورة المشرقة، والمتلألئة عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فيصفه بالبطل، ويتكلم عن صدقه ونبل شمائله وخصاله حتى يتوهم الناس أنه من المادحين المنصفين للرسول صلى الله عليه وسلم والمدافعين عنه، ثم تأتي مرحلة الهدم التي يبث فيها كارليل أفكاره العبثية والهدامة، والتي يستهدف من خلالها تشويه العقيدة الإسلامية والإساءة إليها.

وتتجلى مرحلة الهدم في منهج كارليل في عدم اعترافه بالوحي الإلهي (القرآن) وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فقد نظر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم على أنه بطل مثل سائر الأبطال، والبطولة قيمة من القيم الإنسانية. غير أن لها في كل فكر مفهوما ومفهومها في الفكر الإسلامي يختلف عن مفهومها في الفكر الغربي، وكذلك كل القيم واحدة في الاسم، متباينة في المفهوم، ومرجع هذا التباين اختلاف البيئات، والثقافات والأديان، والأصول الأساسية التي قام عليها فكر الأمة، وتشكلت عليها ذاتيتها ومزاجها النفسي والاجتماعي، ويرجع مفهوم البطولة في كل فكر بشري إلى العوامل التي شكلت هذا المفهوم، والتاريخ الذي أثر فيه، وأن الوعي بهذه الأصول والعوامل من شأنه أن يضعنا على الحقائق التي تختلف فيها الرؤية، ووجهة النظر بالنسبة للبطولة، وما يتصل بها من مفاهيم الزعامة والعظمة، وما يقوم من تفرقة واضحة بين النبوة والعبقرية (الجندي، 1981، ص206).

وقد ظهر منهج البناء والهدم أيضا في كتاب"حضارة العرب" للمستشرق جوستاف لوبون، والذي ترجم إلى العربية، وفيه يشيد لوبون بما حققه الإسلام من مكاسب للعرب في الجزيرة العربية وكيف انه قد رد للمرأة اعتبارها وكيانها، ثم وسط هذا "البناء" نجد معاول "الهدم" تجاه القرآن الكريم، فيرى أنه من تأليف محمد، بل يهدم شخصية محمد صلى الله عليه وسلم كرسول ونبي، فيرميه بالهوس والجنون ويتهمه بالصرع، ويدعي بأن أميته قد كانت سببا في التناقضات الموجودة في القرآن (ادريس، 1995، ص47) .

وهنا تكمن أهمية التحذير من خطورة الإستشراق المادح، ويكون مالك بن نبي بذلك قد وفّق إلى حد بعيد جدا في التحذير من أعمال المستشرقين المادحين؛ لأنها مظللة ومغالطة ومخذرة للعقول، والدراسة الحصينة والموضوعية في اعتقادنا تقتضي منا أن لا نعترف إلا بأولئك المستشرقين الذين عرفوا الإسلام فاعتنقوه ودافعوا عنه؛ مثلما فعل المستشرق الفرنسي الفنان ألفونس إيتين دينييه الذي عاش في الجزائر فأعجب بالإسلام وأعلن إسلامه، وتسمى باسم"ناصر الدين دينيه"(السباعي، د.ت، ص33) ومراد ولفريد هوفمان الذي أفادته نصرانيته في تعميق يقينه بوجود الله وحتمية الوحي وضرورة الدين للإنسان من غير أن تنجح في حل إشكال مهم عنده، ويكمن هذا الإشكال في تحديد ماهية الدين الحق من بين الأديان التي تدين بها الكيانات الإنسانية، وقد بدأت رحلة هوفمان في التعرف على الإسلام أثناء عمله في القنصلية الألمانية في الجزائر في عام 1961م وأسلم عام 1980، ومن كتبه"يوميات مسلم ألماني" "الطريق إلى مكة"،" الإسلام عام 2000"،" الإسلام كبديل" (السقار، 1434، ص209، 210 ، 213 ، 214).

وإننا لا نريد من خلال وجهة النظر هذه أن نتعسف على أعمال المستشرقين، بل نسعى إلى توخي الحقيقة والتعرف على مالهم من سلبيات نسجلها عليهم، اقتداء بمنهج الإسلام، الذي حثنا على اتباعه إحقاقا للحق، ووضعا للأمور في نصابها. ولعل موقف بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمان يندرج في هذا الإطار؛ ولن نكون مبالغين إذا قلنا بأن بنت الشاطئ قد وقفت من الإستشراق موقفا معتدلا وربما منصفا، وبعيدا عن الذاتية والتعصب.

فقد كانت عائشة عبد الرحمان متعاطفة مع إنتاج الإستشراق الثقافي، وقد أثنت على منهجيتهم المتعمقة في الموضوعات اللغوية والفكرية والتراثية، ولكنها وجهت الانظار إلى الأخطاء والأخطار والسلبيات التي لحقت بأعمالهم، وبينت بأن الإستشراق قد استهدف في نشأته الأولى خدمة النفوذ الديني وتحقيق الأطماع السياسية والإستعمارية، وأكدت بأن ما راوده من التواء في أساليب الكتابة، والإضطراب في الأخبار التاريخية، والإعتساف في تأويل النصوص، يعود إلى عدم تذوق المستشرقين للغة العربية، وإدراك أسرارها في الأداء والتعبير، وإلى افتقارهم للنزاهة والإخلاص، وأنه لا يجوز بعد اليوم، أن يبقى هذا التراث في الأيدي الأجنبية، وأن نتخلى عن تراث نحن أهله وأصحابه، لسوانا من الغرباء، يفعلون به ما يحلو لهم وينفثون فيه لغة الحقد والكراهية (معاليقي، 1997، ص81، 83).

إن أعمال المستشرقين، بكل ما تحمله من تداعيات تترك، ومن دون شك آثارا قوية على الفكر الإسلامي الحديث، وهذا أمر لا يجوز تجاهله أو الاكتفاء برفضه؛ فمجرد الرفض لا يحل المشكلة، ولهذا فلا بديل عن مواجهة هذه المشكلة من خلال البحث الدؤوب والدراسة الجادة، لمعرفة المؤثرات الحقيقية لموقف الغرب من الإسلام، فالصورة السائدة عن الإسلام اليوم لدى الغرب ليست صورة وقتية أو عارضة، وإنما هي صورة صاغتها قرون طويلة من الصراع الفكري والتحدي الحضاري.(محي الدين، 1998، ص14) ليظل الصراع هو النموذج المهيمن في الإبستيمولوجيا الغربية؛ فالأنا الغربية لا تتعرف على نفسها إلا من خلال "الآخر" الذي تختاره وتشكّله وتصنعه بالصورة التي تجعله قابلا لأن يقوم بالوظيفة التي تريدها، وظيفة تأكيد"الأنا" وتسعى العقلية الغربية إلى تطوير صورة سلبية للحضارة الإسلامية بهدف "وصمها"حتى تتأهل لكي تكون عدوا ينبغي مصارعته، لأجل إخضائه (عمارة، 1998، ص90، 93).

ولعلنا نكون منصفين لمالك بن نبي إذا قلنا بأن موقفه من الإستشراق هو موقف جدير بالإحترام والتقدير؛ حتى وإن لم يتم الاتفاق معه، فموقفه ولاشك ينبع من خوفه على الإسلام وسعيه لحمايته من عبث المستشرقين الحاقدين عليه، وتحصين أبناء الإسلام وتقوية مناعتهم بالتنبيه إلى خطورة الإستشراق، وعدم الاغترار بالمظاهر، وبعبارات المدح والثناء التي يلقي بها المستشرقون من هنا وهناك.

إن رفض مالك بن نبي المطلق للإستشراق ينبع أساسا من تكوينه، وانتمائه وتجاربه؛ فهو ينتمي إلى بلد عربي إسلامي عانى من تجربة الصدام بين المجتمع الأوربي المادي والمجتمع الإسلامي العربي، ما لم يعانه بلد آخر سواء في طول المدة أو قوة الصراع أو عمق الأثر وقد عانى مالك بن نبي هذه التجربة فكريا ونفسيا كأشد ما يعانيها إنسان مثقف مرهف الشعور والحس؛ فقد عاش أكثر من ثلاثين سنة في أوربا؛ كانت عميقة الأثر بالنسبة لرجل مثقف في إظهار ذاتيته، وإيقاظ الشعور في نفسه وفكره، إنه عربي مسلم ليس هو من المجتمع الأوربي الذي عاش فيه بجسمه في شيء، وكان تعمقه في الثقافة الأوربية سببا في تحرره من نفوذها ومعرفته لمصادرها ومواردها، لدوافعها الخفية، وبواعثها العميقة، ولا سيما أنه جمع إلى جانب الثقافة العلمية ثقافة فلسفية واجتماعية واسعة. لقد كانت أوربا بالنسبة لمالك بن نبي تربة صالحة لتنمية جذوره التي لاتزال متصلة ببلده، مغموسة بتاريخ أمته (بن نبي، 1986، ص9، 10).

ومن خلال رفضه المطلق لإنتاج المستشرقين مادحين كانوا أو منتقدين للحضارة الإسلامية؛ يكون مالك بن نبي قد وجه الأنظار إلى مسألة في غاية الأهمية، وهي أن المستشرق، وتحت تأثير ثقافته وبيئته المتشبعة بالروح العدائية للإسلام وتاريخه؛ مهما حاول أن يكون متجردا، ونزيها، وموضوعيا؛ فلا بد أن ينحرف شعوريا أو لا شعوريا، فيجتر بعض المظاهر والصور المشوهة والمسيئة للإسلام من تراثه الأوربي المتراكم عبر القرون؛ وقد بدا جليا أن الغرب المنتصر والمنتشي والمهووس بانتصاراته قد نصب الإسلام عدوا لذوذا له، وكشف عن رغبته في القضاء عليه، وعبر عن ذلك على لسان الكثير من فلاسفته، ومفكريه ومستشرقيه.

خاتمة:

وختاما يمكننا القول أن مالك بن نبي، ومن خلال موقفه الرافض لإنتاج المستشرقين، منتقدين كانوا أو مادحين للحضارة الإسلامية، وتأكيده على أن الخطر الأكبر على مسار الفكر الإسلامي يأتي من فئة المستشرقين المادحين؛ قد كشف عن حس تحليلي ونقدي رفيع، وجه الأنظار من خلاله إلى ضرورة عدم التسرع في إصدار الأحكام القطعية الإيجابية بشأن إنتاج المستشرقين، فالإستشراق ليس علما دقيقا بل هو دراسة يقوم بها إنسان تحكمه، وتوجهه، وتؤثر فيه إيديولوجيا معينة.

ولذلك يمكننا اعتبار وجهة نظر مالك بن نبي حول الإستشراق بمثابة دعوة جادة لوعي شخصيتنا، واكتشاف الضياع والتغريب السياسي والثقافي الذي كان الغرب ومازال يمارسه ضدنا بأيدينا؛ فقراءة الإستشراق هي دعوة للعودة إلى الذات، مع الأخذ بعين الاعتبار أن مهمة الإستشراق الكبرى تتمثل في محاولة طمس الهوية الإسلامية والإساءة إلى رموز الإسلام ومقدساته، ولذلك فقد بات من الضروري الانتباه إلى الأفكار الخطيرة، والعبثية، والمسمومة، والمضللة تلك التي يدسها المستشرقون، وعدم الإنبهار بكتاباتهم، فليس كل ما يلمع ذهبا كما يقال، فالمدرسة الإستشراقية في عمومها، هي في الأساس مدرسة تبشيرية استعمارية هجومية استفزازية، لا تراعي مقدسات الأمة الإسلامية، ولا تقدر، ولا تحترم مشاعر شعوبها، ومن هذا المنطلق فقد بات من الضروري التصدي لها، وتصحيح ما تثيره من شبهات ومزاعم وافتراءات حول الإسلام .

لقد تمكّن مالك بن نبي وبفضل رؤيته النقدية الجادة والحذرة، والمتميزة للإستشراق من معرفة أساليب هذا الأخير وممارساته، واستطاع أن يدرك بأن الإستشراق سواء كان مادحا ممجدا أو قادحا مفتريا؛ فهو في كلتي الحالتين يهدف لتشويه صورة الإسلام، ومن هنا يأتي تأكيده على ضرورة عدم الإنسياق وراء أصوات المستشرقين المادحين، وعدم السقوط في فخ الغرور والتباهي والإفتخار بأمجاد الماضي وإنجازاته؛ لأن ذلك مدعاة للجمود الفكري، والفكر الإسلامي في حاجة إلى خوض غمار مرحلة جديدة، وهي مرحلة التحرر من النفوذ الفكري والتبعية الثقافية والحضارية، مرحلة الاستقلال الحقيقي والشعور بالذات، والثقة بالقدرة على البناء والتجديد، والسير في ركب الحضارة بوعي، وثبات وإيمان بضرورة التمسك بالموروث الأصيل، والتفتح الحذر على مجريات الحضارة الغربية للإستفادة من منجزاتها.

المصادر والمراجع:

أنور الجندي. (1981). *قضايا العصر ومشكلات الفكر في ضوء الإسلام*. بيروت: مؤسسة الرسالة.

بشير ضيف الله. (2005). *فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي*. الجزائر: المجلس الأعلى للغة العربية.

حسن أبو غدة. (الإثنين 03, 2018). *ماذا تعرف حن الإستشراق والمستشرقين*. تاريخ الاسترداد الإثنين 08, 2022، من ماذا-تعرف-عن-الاستشراق-والمستشرقين/المقالات: https://islamsyria.com/ar

ضيف الله بشير. (2005). *فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي*. الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربية.

عبد الحليم محي الدين. (1998). *إشكاليات العمل الإعلامي بين الثوابت والمعطيات العصرية،كتاب الأمة، العدد 64*. قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

عفيف عبد الفتاح طبارة. (1993). *روح الدين الإسلامي*. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

علي بن ابراهيم الحمد النملة. (1998). *الإستشراق والدراسات الإسلامية* . الرياض المملكة العربية السعودية: مكتبة التوبة.

علي محمد اسماعيل. (2000). *الإستشراق بين الحقيقة والتضليل*. القاهرة: دار الكلمة.

فاروق عمر فوزي. (1998). *الإستشراق والتاريخ الإسلامي*. عمان: الأهلية للنشر والتوزيع.

قاسم السامرائي. (1983). *الإستشراق بين الموضوعية والإفتعالية، ط1*. سورية: دار رفاعي للنشر والطباعة والتوزيع.

مالك بن نبي. (1981). *الصراع الفكري في البلاد المستعمرة*. دمشق: دار الفكر.

مالك بن نبي. (1969). *إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، د.ط*. بيروت: دار الإرشاد.

مالك بن نبي. (1987). *شروط النهضة*. دمشق ، سورية: دار الفكر.

مالك بن نبي. (1988). *مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي*. دمشق سورية: دار الفكر.

مالك بن نبي. (1984). *مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط4*. دمشق: دار الفكر.

مالك بن نبي. (1986). *ميلاد مجتمع، ج1 شبكة العلاقات الإجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين*. دمشق، سورية: دار الفكر.

مالك بن نبي. (1986). *وجهة العالم الإسلامي*. بيروت، لبنان: دار الفكر.

مجدي عبد الحافظ. (2005). *مناظرة رينان والأفغاني* . القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي. (1988). *مختار الصحاح، د.ط*. بيروت: مكتبة لبنان.

محمد جلال ادريس. (1995). *الإستشراق الإسرائيلي في المصادر العربية*. القاهرة: العربي للنشر والتوزيع.

محمد حسن خليفة. (2000). *أزمة الإستشراق الحديث والمعاصر*. الرياض: جامعة الإمام بن سعود الإسلامية.

محمد عمارة. (1998). *الحضارات العالمية تدافع أم صراع*. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

محمد عماره. (د.ت). *الإسلام في عيون غربية بين افتراء الجهلاء..وإنصاف العلماء*. بيروت: دار الشروق.

محمد فاروق النبهان. (2012). *الإستشراق، تعريفه، مدارسه، آثاره، د.ط*. الرباط، المملكة المغربية: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة اسيسكو.

محمد قدور تاج. (2014). *الإستشراق، فلسفته ونتائجه، ط1*. عمان، الأردن: دار الرواد مكتبة المجمع العربي.

محمود حمدي زقزوق. (د.ت). *الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري*. القاهرة: دار المعارف.

محمود محمد شاكر. (1997). *رسالة في الطريق إلى ثقافتنا*. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مصطفى السباعي. (د.ت). *الإستشراق والمستشرقون*. عومان: دار الوراق المكتب الإسلامي .

مصطفى يعقوب عبد النبي. (2017). المستشرقون وتعصبهم الفاضح ضد العرب والإسلام. *دراسات استشراقية* ، صفحة 92.

منذر معاليقي. (1997). *الإستشراق في الميزان*. بيروت: المكتب الإسلامي.
منقذ بن محمود السقار. (1434). *لهذا أسلموا*. مكة المكرمة السعودية: رابطة العالم الإسلامي، إدارة الثقافة والإعلام.